أثر الرسالة في الأدب المعاصر

بمناسبة دخولها في السنة الثالثة عشرة

للدكتور سيد حنفي

راودت خاطري طويلاً فكرة الكتابة في أثر الرسالة في الأدب المعاصر. ولم يكن يمنعني عن المضي فيها غير انتظار المناسبة، فأنا رجل بطبيعة مهنتي لا أقبل على عمل إلا بميعاد معلوم، ولا اقيم له كياناً إلا بميزان محدود. ثم كانت مناسبة دخول الرسالة في عامها الثالث عشر فتجسمت الفكرة يقيناً فعملاً، وأسرعت إلى الكتابة يدفعني عاملان مهمان: الأول ما يضطرب في نفسي من رغبة الإنصاف، والثاني ما يغمرني غمراً من أطايب الرسالة وكتابها وشعرائها شيباً وشباناً.

ليس من شك في أن الكتابة عن أثر الرسالة في الأدب المعاصر تسدي خدمة كبيرة لمحبي الأدب والتاريخ الأدبي خاصة، فليس من الميسور على القارىء في المستقبل أن يلم بأطراف نهضتها الأدبية العظيمة في مجلدات ضخمة قد يتيسر له الإطلاع عليها وقد لا يتيسر. ومن ثم فان الكتابة المركزة التي ترسم حدود المدارس الأدبية الكبيرة التي نشأت في ظلال الرسالة وكان قادتها من كتابها وشعرائها، إن هذه الكتابة تيسر الأمر الذي يصعب في الحالة الأولى، وتوفر الجهد لمن يريد الإطلاع والمعرفة وإقرار الحقوق لأصحابها.

ولا يهمني هنا أن أرسم الخطوط والظلال كاملة لقادة هذه المدارس، ولهذه المدارس نفسها، فهذا لا يتسع له مقال، وإنما يحتاج إلى كتاب. وحبذا لو نهض بهذا العمل الجليل أديب فاضل من أدباء الرسالة، والذي أريد أن أكشف عنه وأقدمه إلى القراء هو تقسيم أدباء الرسالة وشعرائها إلى مدارس متميزة متباينة لكل منها خصائص واضحة.

وقبل كل ذلك سنقدم أسماء كبار كتابها وباحثيها من شيوخها، وأسماء كبار كتابها وشعرائها ومفكريها من شبابها، وسنضطر إلى وضع اسم واحد في قسمين من تقسيماتنا لجمع صاحبه بين النثر والشعر مثلا. وسيرى القارىء أيضاً أننا سنذكر أسماء لا تكتب في الرسالة اليوم، ولكن الحق والغيرة الأدبية يقتضيان أن نذكر فضل الرسالة عليهم وفضلهم عليها ليتم فضلهما معاً على الأدب عامة. فمن شيوخها الأفاضل: الأساتذة الأجلاء: الزيات، وطه حسين، وأحمد أمين، والعقاد، وعزام، والرافعي، ومظهر، ومحمد عوض، وزكي مبارك، ومحمود البشبيشي، والنمراوي، والنشاشيبي، والرصافي، وأحمد زكي، وعبد المتعال الصعيدي، وتوحيد السلحدار، وتوفيق الحكيم، والأب أنستاس الكرملي، وعلي محمود طه، وابراهيم ناجي، والنشار، وجميل صدقي الزهاوي، وإيليا أبو ماضي، ومحمود غنيم، وخليل بك مطران، وقدري طوقان، ورامي. ومن شبابها المبقريين: الأساتذة الكرماء: علي الطنطاوي، وعبد المنعم خلاف، وسيد قطب، وصلاح المنجد، ومحمود الخفيف، ومحمد مندور، ودربني خشبة، ومحمود إسماعيل، وحسين البشبيشي، وأمجد الطرابلسي، وسعيد العريان، وصالح جودت، ومختار الوكيل، ونجيب محفوظ، ومحمود السيد شعبان، وزكريا ابراهيم، وفهمي عبد اللطيف، وعبد الرحمن الخميسي، والعوضي الوكيل، والمجمي، والصيرفي، والدكتور عزيز فهمي، وفتحي مرسي، والجبلاوي، والزحلاوي، وعتيق. ولن أستطيع نسيان السيدة الزهرة، والآنسة قدري طوقان.

هذه أسماء لامعة في تاريخ الأدب، والفضل في ظهورها في الأفق الأدبي يرجع إلى الرسالة قدمناها بغير ترتيب لنمهد للقارىء السبيل إلى تقسيمها إلى مدارس تجمعها الرسالة.

رأينا أن بعض هذه الشخصيات قد انفردت باستقلال في شخصيتها، بل إن قوة هذه الشخصية المنفردة قد أثرت في غيرها

إنكاره هذا برأي للدكتور مندور! أن يكتبوا عن محمد وأبي بكر وعمر وعلي. لماذا! لأنهم عظماء! وكان الواجب أن يكتبوا عن (رجل الشارع)!

لكأن العظمة جريمة يعاقب عليها أصحابها بالإهمال!

إن رجل الشارع ليستحق الحديث، نعم، ولكن العظيم يستحقه - على الأقل كرجل الشارع - والأدب مكلف أن يتحدث عمن يحسن الحديث عنهم، من هؤلاء أو من هؤلاء، وكل تحكم في اتجاهه إنما هو مجاوزة للحق ومجانبة للصواب.

* * *

وبعد فليس ما ناقشته هنا إلا جانبا ضئيلا مما طرقه المؤلف من مباحث، وحسبه أن يثيرنا للرد أو للموافقة، فهذا أو ذلك نجاح ولا شك للكتاب.

سيد قطب

فتكونت مدارس سنعرض لها . ومن هذه الشخصيات الأساتذة: الزيات والرافعي والعقاد ، وهؤلاء كان لهم حقا مدارس ملموسة الأثر في الرسالة . أما طه حسين وزكي مبارك فمع حيويتهما الفائقة فإن أثرهما وإن عظم في الأدب عامة ، لا نستطيع أن نجد له خطوطا بارزة في مدارس الرسالة الأدبية . وسنتكلم عن هذه المدارس .

مدرسة الزيات

ليس من شك في أن للأستاذ الزيات طريقة فذة واضحة التقاسيم ، قوية السبك ، ولعل أبلغ بيان لها وأقوى دفاع عنها هو ما كتبه في سلسلة مقالاته عن « دفاع عن البلاغة » ولسنا هنا بصدد توضيح معالمها ، وإنما علينا أن نشير إلى تلامذتها وحملة مشعلها . وسنجد أن الأستاذ الزيات وإن كان كاتبا فحسب قد أثر في شعراء كثيرين .

فمن كتاب هذه المدرسة مع تفاوت في القوى والقرب أو البعد عن الأصل : الأساتذة الأفاضل : صلاح الدين المنجد ، وشكري فيصل ، ودريني خشبة ، ومحمد فهمي عبد اللطيف ، ومحمد محمد المدني ، وعبد الرحمن عيسى ، ومحمود عزت عرفة .

أما الشعراء الذين تلمح أثر الزيات فيهم فيمتاز كل منهم بأنه ملك القدرة على الكتابة نثراً رصينا وشعراً قوي السبك حلو الرنين ، وفي مقدمتهم الأساتذة : علي محمود طه وعبد الغني حسن ومحمود الخفيف وحسين محمود البشبيشي وأنور العطار ومحمود السيد شعبان . وكل منهم يحتل مكانا عاليا في الخلود الأدبي مع اختلاف في المزاج والاتجاه سنعرض له أخيراً عند الكلام عن مدارس الرسالة الشعرية .

مدرسة الرافعي

كون الرافعي رحمه الله مدرسة كبيرة ، ولكنها في الحقيقة لم تنجح كل النجاح في تقليده تقليداً كاملاً ، وإن كانت قد أحبت نهجه ودافعت عنه وألف بعضهم فيه كتابا قيما . ولعل صعوبة التقليد للرافعي ناشئة عن خياله الخارق للعادة ودرايته العجيبة بكل شاردة أو واردة في اللغة والأدب . ومن تلامذة هذه المدرسة من لم يتأثر إلا بها ، ومنهم الأساتذة الأجلاء سعيد العريان ، وعلي الطنطاوي ، ومحمود محمد شاكر . ولعل أقرب الشعراء إلى هذه المدرسة هو محمود حسن اسماعيل ، ولكنا قد نلمح للرافعي أثراً في بعض الشعراء وسنعرض لذلك بعد الكلام عن مدرسة العقاد

مدرسة العقاد

أما العقاد فله مدرسته وله شخصيته ، وهي الآن أشد أثرا ، ولم ينجح كل تلاميذه في تقليده وإن نهجوا نهجه في طريق البحث والتفكير ووسائل التقسيم والتفسير . ولقد برز منهم أساتذة أفاضل في مقدمتهم الأساتذة : سيد قطب ، وعلي أدهم ، والزهلاوي ، والجيلاوي . وممن تأثروا به في الشعر غير سيد قطب والجيلاوي نخيمر والحلاوي والعوضي الوكيل وخاصة في بدء نشأتهم

وهناك مدرسة شعرية بين المدارس الثلاث : وهم شعراء جمعوا بين قوة الديباجة ورقة الموسيقى من الأستاذ الزيات . وقوة الخيال الشعري من المرحوم الرافعي . وملكوا العمق التأملي في الخفايا الوجدانية من الأستاذ العقاد ، وأغلب هذه المدرسة من الشباب وفي مقدمتهم الأستاذ محمود اسماعيل والأستاذ سيد قطب والاستاذ حسين البشبيشي والأستاذ عبد الرحمن الخميسي ، وفي هؤلاء صوفية حبيبة وروح فني وضاء

أما الأساتذة : الوكيل والعجمي وشعبان وعبد الغني حسن وزكي مبارك ففي شعرهم قوة ديباجة وموسيقية ولكنهم يلمسون المعاني بهوادة .

مدرسة الوعاظ والثقافة

ولعلها كلها من شيوخ الرسالة الأمجاد . وإن كل عالم منها لأشهر من أن يعرف في الأقطار العربية ، بل إن آراءهم وأقوالهم وتحقيقاتهم الأدبية واللغوية لتحمل القول الفصل ، وهم الأساتذة الأجلاء العلماء اسعاف النشاشيبي والأب أنستاس وأحمد العوامري ومحمود البشبيشي والزيات والمبارك ، وهؤلاء ينظر اليهم كقادة يحافظون على اللغة فوق قيادتهم للأدب .

وبعد فهذه كلمة موجزة تحتاج الى تفصيل .

دكتور
سيد حنفي

سيصدر بعد قليل كتاب :

دفاع عن البلاغة

بقلم

أحمد حسن الزيات

وقد أضيفت إليه فصول لم تنشر في « الرسالة »